أدب الطفل... تعاليم إنسانية

أ. فاطمة فؤاد أحمد

كاتبة أدب الطفل

إن المسار الحقيقي باتجاه الواقع المعيش والتقاليد المتعارف عليها لا خلاف عليه، وقد نتفق أو نختلف، لم تكن تلك المعضلة في حقيقة الأمر، فإن دائرة الاختلاف في الآراء موجودة، ولكنّ الحديث عن أدب الطفل في إطاره الأخلاقي والإنساني يحتاج أن نعول عليه كثيرًا، قد نستطيع أن نحقق ذلك بالتأكيد، فالصغير أحوج ما يكون إلى توجيهه ذلك التوجيه في المسار الإنساني والأخلاقي، فالطفل بطبيعته البريئة يتقبل القيم الإنسانية التي تحقق له السلام النفسي والأخلاقي معه ومع الآخرين. قد يبدو لدينا للوهلة الأولى أن الطفل بحاجة أكثر لمن يداعب عقله وحواسه وعواطفه، بما يحتاجه ويؤثر فيه ويتأثر به، بل ويشبع رغباته واحتياجاته العفوية والتلقائية، نعم، كل ذلك بل وأكثر، ولكن لا يجعلنا ذلك أن نفكر بروية في مصيره الإنساني ومستقبليات الحياة فحسب.

أعلم جيدًا أنه بحاجة إلى من يعرفه أكثر ويدرك طباعه وامتيازاته، بل وعيوبه أيضًا، ويدرس نفسيته جيدًا، وكل ما يتعلق بمدركاته ومعرفته عن الأشياء وعن الحواس، بل وعن الآخرين من حوله، قد يحقق ذلك لنا الكثير، ولن يصعب علينا أن نتحدث إليه ومعه ومن أجله فيما نقدمه.

إن الأدب وفحواه ومحتواه يستطيع أن يحقق ذلك كله، وإن كان قد حقق الكثير منه أيضًا، فسيظل الطفل بحاجة للأكثر والأفضل، قد تحركنا المساعي والآمال من أجله، وسنظل في عالمه الصغير تعترينا كثير من الأمور التي تعلق بذاكرته وبذهنه وصوره الذهنية التي يصورها عن الحياة ومشاهدها المختلفة، وعن الإنسان وإنسانيته، وإن الطرح الذي أطرحه في مقالي هذا يعلق بفكري عن إمكانية أن أضع في دائرة الضوء بصيصًا من التعاليم الإنسانية في ذلك الأدب، ولسوف يقول قائل: إن أدب الطفل بالفعل يحقق تلك الأطروحة، ولكنني أقصد من وجهة أخرى تلك الوجهة التي أتجه نحوها بحيث يدرك الصغير معالم الإنسانية بكل معانيها ومبادئها، تلك التعاليم التي لا تتعارض مع العقائد الدينية.

وإن الضمير الإنساني اليقظ يحتاجه الصغير في فترة يدرك فيها معنى الضمير، وقد نستطيع أن نحقق ذلك بعيدًا عن الوعظ والإرشاد في طريقه المباشر، ولكن في عمق الفكرة التي تأتي من المسئولية التي تتعلق بأدب الطفل، وتحمل في مضمونها الكثير، فإن الصغير وتلقائيته تمكننا من أن نعول على ذلك النهج فيما يقدم من مضمون، بحيث يحقق لنا ما عهدناه منذ البداية، تلك التي سعى إليها الكثير من الأدباء فيما يقدمونه، وما زال الطريق أمامنا طويلًا، ولن يخالف ذلك الإطار العام، ولن يتعارض مع ما يحبه الصغير أو يكرهه، ولسوف يلقى منه اقبالًا؛ لأنه دائمًا يريد أن يعرف، وما دام الصغير يرقى للمعرفة فلن تهدأ الفكرة التي تتبنى ذلك المسار .

إن التعاليم الإنسانية بمفهومها البنّاء سوف تحقق لجيل بأكمله الصلابة والثبات، والوقوف على مدركات الأمور، ولن يتفاجأ في المستقبل بما يتحول من حوله أو بمن يقبل عليه أو بمن يدير له ظهره، فيستطيع أن يفرق بين الحرية المسئولة وغير المسئولة، ويعلم عن الحرية الكثير، تلك الحرية التي لا تتعارض مع القوانين الكونية والمسارات الصحيحة، والتي لا تتعارض مع العقائد الدينية، وعن الحرية بمفهومها الأخلاقي والإنساني الذي يحقق له الاعتماد على نفسه في ظل احترام من حوله.

إن التعاليم الإنسانية تحمل الكثير من المفاهيم التي بوسعها أن تحقق له واقعًا معيشًا غير الواقع الذي يسنده إلى الكسل والتراخي والوقوع في الخطأ والتمادي فيه أحيانًا.

إن أدب الطفل بمثابة المصباح الذي يضيء الطريق المعتم للصغار، بل بمثابة الدليل الواضح المسار الذي يجعل الصغير يتدارك الكثير من المشكلات الحياتية في المستقبل والغد. وإن كانت الفكرة متواضعة في ذاتها، ولكنها عريقة في أصلها وجذورها، لا تنمحي يومًا من ذاكرة التاريخ أبدًا، ولو نظرنا لها بعين الاعتبار لتأخذنا إلى أعمق من ذلك بكثير، وتثري بمخيلة الصغير عبر أخيلة كثيرة تهون عليه درب الحياه إن عصفت به الأقدار، وتمهله تارة أخرى، وتخبره بأن الغد القريب يحمل له آمالًا كثيرة، وأن الحياة الرحبة بكونها المتسع قد تخبأ له أشياء لا يعلمها، ولكن عليه أن يعرفها ويدركها ويتعلمها أيضًا.